ابن خلدون فى مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

٣

ثم عين المؤرخ فى وظيفة أخرى هى مشيخة (نظارة) خانقاه بيبرس، وهى يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجىء الصوفية[١]؛ فزادت جرايته، واتسعت موارده. ولكن أمد سكينته لم يطل، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق بطلها ومدبرها الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب؛ وكانت نظم البلاط القاهرى وظروفه ومايضطرم به من الدسائس والخيانات مما يسمح بتكرار هذه الفتن؛ وكان يلبغا الناصرى نائب السلطنة من قبل، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان؛ وكان الظاهر برقوق من جملة أمرائه وتابعيه؛ ولكنه استطاع فى فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤) أن يظفر بالعرش دونه، وأن يجرده من سلطته ونفوذه، وأن يقصيه الى الشام. ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا، فسار الى القاهرة فى أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه، ففر من القلعة، ودخل يلبغا الناصرى القاهرة، وأعاد الصالح حاجى السلطان المخلوع الى العرش، وقبض على برقوق وأرسله سجينا الى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١). ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش، فقبض على الناصرى، وسار الى دمشق لمحاربة برقوق الذى استطاع أن يفر من سجنه؛ فهزمه برقوق وعاد الى القاهرة ظافراً منصوراً، واسترد عرشه فى صفر سنة ٩٢، لبضعة أشهر فقط من عزله. ويخصص ابن خلدون فى «تعريفه» فصلا لهذه الحوادث[٢]، ويمهد له بشرح فلسفى اجتماعى يتحدث فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها، ثم طغيان الحضارة والرفاهة عليها، وخروج الأقوياء منها عليها، وبثهم فيها روحاً جديداً من القوة، وتكرر هذه الظاهرة، ثم يطبق نظريته على دول المماليك المصرية منذ صلاح الدين، ويقص تاريخها باختصار. وهنا يبدو ابن خلدون كما يبدو فى مقدمته، ذلك الفيلسوف الاجتماعى الذى يعنى بتعليل الظواهر والكائنات، واستقرائها فى حوادث التاريخ.

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذى يتمتع بعطفه ورعايته. فلما عاد الظاهر برقوق الى العرش ردت اليه. يدل على ذلك قوله فى التعليق على عود الظاهر: «ثم أعاده الى كرسيه للنظر فى مصالح عباده، وطوقه القلادة التى ألبسه كما كانت، فأعاد لى ما كان أجراه من نعمته[١]».

ولبث ابن خلدون على ذلك أعواما ينقطع للبحث والدرس. وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧)، فى الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخه. ولكنه يمضى فى هذا التعريف مراحل أخرى، فى النسخة المخطوطة التى أتينا على ذكرها؛ ويفصل حوادث حياته حتى مختتم سنة ٨٠٧، أعنى قبل وفاته ببضعة أشهر. والنسخة المخطوطة أكثر تفصيلا واسهاباً حتى فيما تتفق فيه مع النسخة المتداولة من مراحل الترجمة؛ ولهذا آثرنا الرجوع اليها الى جانب النسخة المتداولة فى كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل. غير أن النسخة المخطوطة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته.

ليس فى حياة ابن خلدون فى هذه الفترة ما يستحق الذكر سوى سعيه الى عقد الصلات بين البلاط القاهرى وسلاطين المغرب ويجمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الملوكية، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبنى عبد المؤمن ملوك المغرب؛ وبين الناصر قلاوون وملوك بنى مرين؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية؛ ثم يعطف على مساعيه فى عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس؛ وملخصها أنه كتب الى سلطان تونس يحثه على اهداء ملك مصر، فأرسل اليه هدية من الجياد النادرة، ولكنها غرقت مع السفينة التى كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا. ورد الملك الظاهر باهداء سلطان تونس؛ ثم بعث سنة تسع وتسعين الى المغرب ليشترى عدداً من الجياد، فزود ابن خلدون الرسل بالارشاد والتوصية. ولكنهم عادوا بهدية فخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر ارسالها؛ وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب، ومنها خيل مسومة، وعدد وسروج ذهبية. ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما «تناول بين هؤلاء الملوك من السعى فى الوصلة الثابتة على الأبد»

لبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاما، يحول بينه وبين توليه، على قوله، ذلك الجناح من البلاط

(١) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع فى طريق باب النصر على مقربة منه

(٢) راجع هذا الفصل فى التعريف (النسخة المخطوطة) ص ١٢٢ وما بعدها — وراجع خطط المقريزى (مصر) ج ٣ ص ٣٩٢

(١) التعريف — بولاق — ج ٧ ص ٤٦٢

الذى شغب فى حقه ، وأغرى السلطان بعزله ؛ فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله، انتهز السلطان أول فرصة لرده الى منصبه. وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة احدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التنسى قاضى المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالفيوم يعنى بضم قمح ضيعته التى يستحقها من أوقاف المدرسة « القمحية » فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة الثانية . ثم توفى السلطان بعدئذ بقليل ؛ فى منتصف شوال ؛ فخلفه ولده الناصر فرج ، وسرى الاضطراب الى شئون الدولة ، واضطرمت الفتن والثورات المحلية حينا . فلما استقرت الأمور نوعاً ، استأذن المؤرخ فى السفر الى بيت المقدس ، فأذن له ؛ وجال ابن خلدون فى المدينة المقدسة ، يتفقد آثارها الخالدة : وشهد المسجد الأقصى ، وقبر الخليل ، وآثار بيت لحم ، ولكنه أبى الدخول الى كنيسة القيامة (قبر المسيح) . يقول لنا « وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى ، ونكرت الدخول اليه » ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشأم فى ظاهر مصر ، ودخل معه القاهرة فى أواخر رمضان سنة ٨٠٢

وفى المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وسترى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ ، وأن تكراره كان مظهراً بارزاً لذلك النضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م) ثم اخترق الشام جنوبا الى دمشق . فروعت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط أيما اضطراب ، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هذه المفاجأة التى ذكرته بما عاناه بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة أنه حاول الاعتراض والتملص ، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان « بلين القول ، وجزيل الانعام[1] » . ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث تلك الحملة ، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاجقة . وكان سفر الحملة فى ربيع الثانى سنة ٨٠٣ . فوصلت الى دمشق فى جمادى الأولى ، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء فى المدرسة العادلية ، واشتبك جند مصر تواً مع جند الفاتح فى معارك محلية ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن مؤامرة دبرها نفر من بطانة السلطان لخلعه اضطرته للعودة سريعاً الى مصر ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعا الى القاهرة فوصلها فى جمادى الآخرة . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلب المؤرخ نزعة المغامرة كما تغلبه الأثرة . فقد خشى أن تقع المدينة فى يد الفاتح ، فيكون نصيبه الموت أو النكال ؛ ورأى أن يعتصم بالجرأة ، وأن يغادر جماعة المترددين الى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفسه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقا على ماشجر بين القادة من خلاف « وبلغنى الخبر ، فخشيت البادرة على نفسى ، وبكرت سحراً الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج ، أو التدلى من السور لما حدث عندى من توهمات ذلك الخبر[1] » . وانتهى المؤرخ باقناع زملائه فأدلوه من السور ، وألفى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذى عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم اليهم ، والتمس منهم مقابلة تيمور ؛ فساروا به الى المعسكر وأدخل فى الحال الى خيمة الفاتح . ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير فى قوله : « ودخلت عليه بخيمة جلوسه ، متكئاً على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشريها الى عصب المغل ، جلوسا أمام خيمته حلقاً حلقا . فلما دخلت عليه ، فانحنيت بالسلام وأوميت ايماءة الخضوع ، فرفع رأسه ، ومد يده الى فقبلتها ؛ وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعانى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا[2] » .

النقل ممنوع للبحث بقية

(١) التعريف — النسخة المخطوطة .

(١) التعريف — النسخة المخطوطة .

(٢) » » »

ضحى الاسلام

هو الجزء التالى لفجر الاسلام

يبحث فى الحياة العقلية للعصر العباسى

تأليف

الأستاذ أحمد أمين

الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه عشرون قرشاً